من بلاغة الآيات في قصة عيسى ومريم عليهما السلام

إعداد الدكتورة

مشاعل أنور اللهو

الأستاذ المساعد بقسم الدراسات الإسلامية

كلية التربية الأساسية- الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب

الكويت

من بلاغة الآيات في قصة عيسى ومريم عليهما السلام

مشاعل أنور اللهو

أستاذ مساعد ـ كلية التربية الأساسية ـ قسم الدراسات الإسلامية ـ الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب ـ الكويت

البريد الإلكتروني: mm.mostafa@paaet.edu.kw

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

الملخـــص

أنزل الله عز وجل القرآن الكريم معجزة للنبي صـلى الله عليه وسـلم ودليلاً على صـدقه، وقد تعددت وجوه إعجازه إلا أن الإعجاز اللغوي البلاغي هو الوجه الأبرز منها، فهو ينتظم القرآن الكريم كله، وإليه يرجع كثير من وجوه الإعجاز، وفي هذا البحث محاولة لتجلية صـور من الإعجاز البلاغي في قصـة عيسـى ومريم عليهما السـلام من خلال اسـتقراء وتحليل الآيات المتعلقة بقصـة عيسـى ومريم عليهما السـلام، وما كتبه العلماء والباحثون حول هذه الآيات، لمعرفة منهج القرآن الكريم في اسـتعمال الحروف والكلمات والتراكيب لإبراز المعاني والدلالات، ودراسة صور اختلاف التعبير في الآيات المتشابهة في هذه القصة، وبيان صلة ذلك بالإعجاز القرآني.

الكلمات المفتاحية: معجزة – عيسى – الإعجاز البلاغي – الإعجاز اللغوي – المتشابهات.

From the Rhetoric of Verses in the Story of Jesus and Mary (Peace be upon them)

By: Mashai'l Anwar Allahu
An Assistant professor
Department of Islamic Studies
Faculty of Basic Education
The Public Authority for Applied Education and Training
The State of Kuwait
Email: mm.mostafa@paaet.edu.kw

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

Abstract

Almighty Allah has revealed the Holy Qur'an as a miracle of the Prophet may God's prayers and peace be upon him, and as a proof of his truthfulness. Although there were many aspects of this miracle, the rhetorical linguistic miracle remained the most prominent one. This research is keen on displaying the rhetorical miracles in the story of Jesus and Mary, peace be upon them, by examining and analyzing the verses related to the story of Jesus and Mary, peace be upon them, and what scholars and researchers have written about these verses. In addition, the research highlights the approach of the Holy Qur'an of using letters, words and structures to display meaning and connotations as well as studying the images of different expressions in similar verses of this story, and relating this rhetoric to the Qur'anic miracles.

Key words: **miracle – Jesus – rhetorical miracle – linguistic miracle – similarities**.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد...

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

أنزل الله عز وجل القرآن الكريم معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم ودليلاً على صدقه، وقد تعددت أقوال العلماء في تحديد وجه إعجاز القرآن الكريم، هل هو بأسلوبه الذي انفرد به، أم بما تضمن من أخبار الغيب والقصص، أم بما قضى من تشريعات، أم بما حواه من علوم وحكم وهدايات، والصواب أن القرآن الكريم معجز بهذه الوجوه وغيرها، إلا أن الإعجاز البلاغي اللغوي هو الوجه الأبرز من وجوه الإعجاز، فهو ينتظم القرآن الكريم كله، وإليه يرجع كثير من وجوه الإعجاز، وفي هذا البحث محاولة لتجلية صور من الإعجاز البلاغي في قصة عيسى ومريم عليهما السلام.

مشكلة الدراسة:

يحاول هذا البحث الإجابة عن الأسئلة الآتية:

- ما صلة القصة القرآنية بالإعجاز القرآني البلاغي.
- ما هو منهج القرآن الكريم في استعمال الحروف والكلمات والتراكيب لإبراز المعاني والدلالات في قصة عيسى ومريم عليهما السلام.
- ما هو سبب اختلاف التعبير في الآيات المتشابهة في هذه القصة.

أهمية الدراسة:

ترجع أهمية هذه الدراسة إلى النقاط التالية:

- تعلقها بالإعجاز البلاغي الوجه الأبرز من وجوه الإعجاز القرآني.
- تعلقها بالقصة القرآنية، وهي أحد الأساليب التي امتاز بها البيان القرآني.

الدراسات السابقة:

لم أجد من خص هذا الموضوع بالدراسة، لكن البحث سيستفيد مما كتبه العلماء والباحثون في مجال الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، ومما طرحه المفسرون المهتمون بالجانب البياني، لبحث المسائل المطروحة في هذا البحث.

منهجية الدراسة:

ستعتمد هذه الدراسة على المناهج البحثية التالية:

- المنهج الاستقرائي: من خلال استقراء الآيات المتعلقة بقصة عيسى ومريم عليهما السلام، واستقراء ما كتبه العلماء والباحثون حول هذه الآيات.
- المنهج التحليلي: من خلال تحليل النصوص القرآنية، وأقوال العلماء والمفسرين في تفسيرها.
- المنهج الاستنباطي: من خلال استنباط أسرار التعبير القرآني في قصة عيسى ومريم عليهما السلام من حيث دلالات الحروف والكلمات والجمل، والآيات المتشابهة، وبيان صلة ذلك بالإعجاز القرآني.

خطة البحث:

اقتضت طبيعة البحث تقسيمه إلى:

مقدمة: وهي التي بين أيديكم، واشتملت على مشكلة الدراسة وأهميتها، والدراسات السابقة، ومنهجية البحث وخطته.

- التمهيد: عيسى ومريم عليهما السلام في آيات القرآن الكريم.
- المبحث الأول: بلاغة التعبير بالحروف.
- المبحث الثاني: بلاغة التعبير بالكلمات.
- المبحث الثالث: بلاغة الجمل والتراكيب.
- المبحث الرابع: بلاغة اختلاف التعبير في الآيات المتشابهة.
- الخاتمة: وفيها أهم النتائج.

التمهيد

عيسى ومريم عليهما السلام في آيات القرآن الكريم

عيسى بن مريم عليهما السلام هو أحد أولي العزم من الرسل، كانت ولادته معجزة، فقد ولد من غير أب، وأمه مريم الصديقة عليها السلام، وهي المرأة الوحيدة التي صرح القرآن باسمها تكريمًا لها وإعلاءً لشأنها، وتبكيتًا لليهود لقولهم على مريم بهتانًا عظيمًا.

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

وقد ذُكرت مريم عليها السلام في القرآن خمسًا وثلاثين مرة، أربعًا وثلاثين مرة باسمها (مريم)، ومرة بوصفها في قوله تعالى ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ الأنبياء: ٩١. هذا عدا ما ورد من الصيغ التالية:

- (أمه) وردت ثلاث مرات (المائدة:١٧، ٧٥، المؤمنون:٥٠).
- (أمي) وردت مرة واحدة (المائدة:١١٦).
- (والدتك) وردت مرة واحدة (المائدة:١١٠).
- (والدتي) وردت مرة واحدة (مريم: ٣٢).

وذكر المسيح عليه السلام خمسًا وثلاثين مرة أيضًا، بالصيغ التالية:

- باسمه ولقبه منسوبًا لأمه (المسيح عيسى ابن مريم) ثلاث مرات.
- باسمه منسوبًا لأمه (عيسى ابن مريم) ثلاث عشرة مرة.
- باسمه مفرداً (عيسى) تسع مرات.
- بلقبه منسوبًا لأمه (المسيح ابن مريم) خمس مرات.
- بلقبه مفرداً (المسيح) ثلاث مرات.
- وذكر منسوبًا لأمه دون ذكر اسمه أو لقبه (ابن مريم) مرتين.

فالمجموع خمس وثلاثون مرة، هذا عدا ما ورد مضافًا لمريم عليها السلام (ابنها) حيث ورد مرة واحدة فقط.

وعند تتبع المواضع التي ذكر فيها عيسى عليه السلام في القرآن نجد أنه غالبًا ما يذكر

منسوبـًا لأمه، وإذا لم ينسب لأمه فأنها تذكر معه في سياق الآيات أو القصة، ولم يفرد القرآن ذكر عيسى عليه السلام إلا في مواضع خمسة، وهي المواضع التي ذكر فيها عيسى بجانب غيره من الأنبياء، وهذه المواضع هي:

١- قوله تعالى ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ البقرة: ١٣٦.

٢- قوله تعالى ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ آل عمران: ٨٤.

٣- قوله تعالى ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ النساء: ١٦٣.

٤- قوله تعالى ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ الأنعام: ٨٥.

٥- قوله تعالى ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ الشورى: ١٣.

إذن لم يفرد عيسى بالذكر إلا في آيات ذكر فيها مع غيره من الأنبياء، وهذه الآيات تدل على وحدة دعوة الأنبياء والدين الذي جاءوا به، مع العلم أن هناك آيات ذكر فيها عيسى منسوبـًا لأمه مع ذكره مع غيره من الأنبياء وذلك في سورة البقرة: ٨٧، ٢٥٣، والمائدة: ٤٦، والأحزاب: ٧. أما مريم فلم تفرد بالذكر إلا في موضع واحد وهو قوله تعالى ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ التحريم: ١٢، وفي هذا الموضع أراد الله تعالى أن يضرب المثل بعفتها وإيمانها، فذكرت وحدها.

وبذلك يتبين أن أغلب المواضع التي ذكر فيها عيسى عليه السلام ذكرت أمه معه، وأن إفراده بالذكر أمر نادر، ولهذا الأمر دلالة بالغة، فهو يدل على الترابط الوثيق بين عيسى ومريم عليهما السلام، ولذلك قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ المؤمنون: ٥٠، وقال تعالى ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ الأنبياء: ٩١، ولم يقل: (آيتين) لأنها أصبحت به آية، ولأنه أصبح بها آية، فلا انفصال بينهما.

المبحث الأول

بلاغة التعبير بالحروف

للحرف في القرآن الكريم منزلة كبيرة، فالإعجاز القرآني يبدأ من الحرف، سواء كان من حروف المباني أم من حروف المعاني. ومن المعلوم أن تكرار الحرف الواحد في الجمل المتتالية يعد من الأمور المستثقلة على اللسان، وعلى السمع، لكننا عندما نقرأ القرآن نجد في بعض الآيات تكراراً لحرف معين، ومع ذلك لا نحس بثقل هذه الآيات على اللسان في حال النطق، ولا على الأذن في حال السماع، بل على العكس يحس القارئ والسامع بروعة في الكلام وجمال الأداء، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ المائدة: ٢٧. فقد تكرر حرف القاف عشر مرات، ومع ذلك لا يحس القارئ بثقل في النطق، ولو أن إنساناً حاول أن يصوغ عبارة يتكرر فيها أحد الحروف بهذا الشكل، لما استطاع أن يؤلف إلا كلاماً لا معنى له ولا غناء فيه.(١)

وقد ورد مثل ذلك في قصة عيسى عليه السلام، وذلك عندما طلب منه الحواريون أن ينزل عليهم مائدة من السماء، فدعا عيسى عليه السلام الله عز وجل، فجاءه الجواب من الله تعالى ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ المائدة: ١١٥، ويلاحظ هنا تكرار حرف العين ست مرات في آية واحدة، وهو من الحروف الحلقية، ومع ذلك فإن القارئ لا يحس بصعوبة في النطق، بل جاء التعبير في غاية الروعة والعذوبة.

وهذا يرجع إلى ما أطلق عليه د. محمد دراز القشرة السطحية للجمال القرآني، وله فيها نظرتان: الأولى في الجمال التوقيعي في توزيع الحركات والسكنات والمدات والغنات،

(١) ينظر أبو عودة، عودة خليل، البيان القرآني مفهومه ووسائله، بحث ألقي في الندوة الأدبية السنوية لمكتب شبه القارة الهندية- رابطة الأدب الإسلامي العالمية، كيرلا، الهند، ٢٠٠٨م، ص١٨.

والاتصالات والسكتات. والثانية في الجمال التنسيقي في رصف حروفه، وتأليفها من مجموعات مؤتلفة ومختلفة،[١] حيث قال عن هذا النوع من الجمال: «فإذا ما اقتربت بأذنك قليلاً قليلاً فطرقت سمعك جواهر حروفه خارجة من مخارجها الصحيحة فاجأك منه لذة أخرى في نظم تلك الحروف ورصفها، وترتيب أوضاعها فيما بينها، هذا ينقر، ذاك يصفر، وثالث يهمس، ورابع يجهر، وآخر يحتبس عنده النفس، وهلم جراً، فترى الجمال اللغوي ماثلاً أمامك في مجموعة مختلفة مؤتلفة، لا كركرة ولا ثرثرة، ولا رخاوة، ولا معاظلة، ولا تناكر ولا تنافر».[٢]

هذا بالنسبة لحروف المباني، أما حروف المعاني فقد كان لها دلالات كبيرة في الآيات القرآنية، وإشارات بلاغية وبيانية، وإليك أمثلة على ذلك:

أولاً: قوله تعالى ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ مريم: ٢٢-٢٤.

اختلف المفسرون في مدة حمل مريم عليها السلام على أقوال كثيرة:

١. فقيل: تسعة أشهر.

٢. وقيل: ثمانية أشهر، روي هذا القول عن عكرمة، وروي أنه قال: ولهذا لا يعيش ولد الثمانية.[٣] وهذا الكلام مخالف للواقع.

٣. وقيل: سبعة أشهر.

٤. وقيل: ستة أشهر.

٥. وقيل يومًا واحداً.

---

(١) دراز، محمد عبد الله، النبأ العظيم، دار طيبة الرياض، ط٢، ٢٠٠٠، ص١٢٧-١٣٥.

(٢) المرجع نفسه، ص١٣٢-١٣٣.

(٣) ينظر ابن كثير، إسماعيل بن عمر الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج٥، ص١٩٦.

٦. وقيل ثلاث ساعات، وهو ما رجحه الرازي.(١)

٧. وقيل ساعة واحدة، ونقل القرطبي عن ابن عباس أنه قال: ما هو إلا أن حملت فوضعت في الحال، ثم قال: ÷وهذا هو الظاهر، لأن الله تعالى ذكر الإتيان عقب الحمل.(٢)

وقد رجح ابن كثير والشنقيطي أنها حملت كما تحمل النساء.(٣)

ونحن وإن كنا لا نستطيع الجزم بمدة الحمل وتحديدها بدقة، إلا أن هناك دلالات على أن مدة الحمل لم تكن المدة المعتادة، فالعطف بحرف الفاء الذي يفيد التعقيب، يدل على قصر المدة الزمنية بين المعطوفات. وهناك دليل آخر وهو أنه لا يعقل أن تستمر في حملها المدة المعتادة ولا يحس أحد بذلك، حتى إذا أتت قومها تحمله استغربوا واتهموها بالفاحشة. وذكر الرازي دليلاً آخر وهو قوله تعالى ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ آل عمران: ٥٩، حيث قال: ÷وهذا مما لا يتصور فيه مدة الحمل، وإنما تعقل تلك المدة في حق من يتولد من النطفة".(٤) ومما يستأنس به في ذلك قوله تعالى ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ مريم: ١٩ . فقول جبريل عليه السلام يشعر بسرعة تحقق هذا الأمر، فهو لم يقل لها (لأبشرك بغلام) بل قال (لأهب لك غلاماً زكياً).

وهذا كله يقوي القول بأن مدة الحمل كانت قصيرة، ومما أسهم في بيان هذا المعنى دلالة حرف العطف الفاء.

ثانياً: قوله تعالى ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ مريم: ٢٥.

يلاحظ في هذا التعبير استعمال حرفي الجر (إلى) و(الباء) مع إمكانية حذفهما من

---

(١) ينظر الرازي، محمد بن عمر، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج٢١، ص٥٢٦.

(٢) القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ج١١، ص٨٩.

(٣) ينظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص١٩٦ . والشنقيطي، محمد الأمين، أضواء البيان، دار علم الكتب، بيروت، ج٤، ص٤٧٦ .

(٤) الرازي، مفاتيح الغيب، ج٢١، ص٥٢٦.

الجملة، وتكون الجملة سليمة من حيث التركيب النحوي، فيقال (وهزي جذع النخلة). فلم جاء التعبير القرآني بهذه الصورة؟ إن القول بزيادة الحروف لا ينسجم مع البيان القرآني وإعجازه، وما جاء عن بعض العلماء من القول بزيادة الحروف في القرآن كان مرده في الغالب النظر المجرد إلى التركيب النحوي للجمل، وليس إلى أثر هذه الحروف في معاني الجمل التي وردت فيها، قال الزركشي: «واعلم أن الزيادة واللغو من عبارة البصريين، والصلة والحشو من عبارة الكوفيين.... والأولى اجتناب مثل هذه العبارة في كتاب الله تعالى، فإن مراد النحويين بالزائد من جهة الإعراب لا من جهة المعنى».(١)

وعند تأمل التعبير القرآني (وهزي إليك بجذع النخلة) والتعبير الآخر (وهزي جذع النخلة) فإن القارئ المتدبر يجد أن في التعبير القرآني من المعاني والإيحاءات ما لا يجده في التعبير الآخر. وقد أشار د. محمد الأمين الخضري إلى دلالات زيادة (إلى) ومجرورها في الآية حيث قال: ÷ولكن الله تعالى أرشد مريم إلى أيسر الطرق التي تضمن تساقط الرطب بين يديها دون عناء كبير، فهي لا تزال تعاني آثار الولادة، وليس لها من الجهد ما تقوى به على تحريك الجذع يميناً ويساراً، مما يمكن أن يعرضها للترنح والسقوط، إلى جانب ما يؤديه من سقوط الرطب بعيداً عنها، فجاء قوله (إليك) إرشاداً منه تعالى بأن تجعل انتهاء الهز إليها، لتعتمد على الجذع، وتستند إليه أثناء هزه، ولكي يتساقط الرطب قريباً منها".(٢)

أما الباء فهي تفيد الإلصاق،(٣) ولعل إيرادها في هذه الآية لإرشاد مريم بطريقة الهز، قال د.الخضري:" وأرى –والله أعلم– أن زيادة الباء فيها إرشاد لمريم عليها السلام أن تباشر الهز

(١) الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص٦٦٦.

(٢) الخضري، محمد الأمين، من أسرار الحروف في الذكر الحكيم، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٩٨٩، ص٢٦٥-٢٦٦.

(٣) قال ابن عاشور: »والباء في (بجذع النخلة) لتوكيد لصوق الفعل بمفعوله». ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، دار سحنون، تونس، ١٩٩٧، ج١٦، ص٨٨.

بنفسها، ممسكة بالجذع، ملتصقة به دون ما يمكن أن يتبادر من رميه بحجر أو غيره، مما يتخذه الناس وسائل لإسقاط الرطب، وذلك يحقق لها أمرين:

- أولهما أن تستند إلى الجذع أثناء هزه، وهو أعون لامرأة تعاني من الضعف والإرهاق إثر الولادة.
- وثانيها أن الهز المباشر للجذع يساعد على كثرة سقوط الرطب منه".[١]

وبذلك يتبين أثر حروف الجر (إلى) والباء في دلالة هذه الآية، وفي دقة تصوير المشاهد والشخصيات، وأن المعنى المراد لم يكن ليفهم لولا وجودهما.

ثالثاً قوله تعالى ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ آل عمران: ٥٢.

يتساءل القارئ المتدبر لماذا جاء التعبير في قوله (من أنصاري إلى الله) بهذه الصورة، وليس بصورة أخرى مثل (من أنصار الله)، أو (من أنصاري)؟ وقد يُظن أن هذه التعبيرات بمعنى واحد، وهذا غير صحيح، فلحرف الجر (إلى) دلالة لغوية، وإضافة معنوية. أما المفسرون فقد كانت لهم أقوال عديدة وهذه أهمها:

١- قال بعض المفسرين: (إلى) بمعنى (مع)، أي من أنصاري مع الله.[٢]

٢- وقيل: من أنصاري في السبيل إلى الله.[٣]

٣- وقيل: متعلق بمحذوف، أي: من أنصاري ذاهبًا إلى الله ملتجئًا إليه.[٤]

٤- وقيل: من أنصاري لله.

---

(١) الخضري، من أسرار الحروف، ص١٧٥-١٧٦.

(٢) ينظر ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، تأويل مشكل القرآن، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٦، ص٥١١.

(٣) ينظر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٤، ص٩٧. وابن كثير، تفسير القرآن، ج٢، ص٣٨.

(٤) ينظر النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد، مدارك التنزيل، دار النفائس، ١٩٩٦، ج١، ص٢٤٠-٢٤١.

٥- وقيل: من ينقطع معي إلى الله.

٦- وقيل: من ينصرني إلى أن أبين أمر الله.(١)

٧- وقيل: متعلق بأنصاري متضمنًا معنى الإضافة، أي من يضيفون أنفسهم إلى الله عز وجل، وينصرونني كما ينصرني.(٢)

٨- وقيل في التعبير بحرف (إلى) دلالة على الغاية من النصرة، نقله الآلوسي عن صاحب الكشف، فقال: «وقال في الكشف لعل الأشبه في معنى الآية -والله تعالى أعلم- أن يحمل على معنى من ينصرني منهيًا نصره إلى الله تعالى كما يقتضيه حرف الانتهاء دون تضمين كأنه عليه السلام طلب منهم أن ينصروه لله تعالى لا لغرض آخر مدمجًا أن نصرة الله تعالى في نصرة رسوله، وجوابهم المحكي عنهم بقوله تعالى (قال الحواريون نحن أنصار الله) شديد الطباق له، كأنهم قالوا: نحن ناصروك لأن نصر الله تعالى للغرض الذي رمز إليه، ولو قالوا مكانه: نحن أنصارك لما وقع هذا الموقع. انتهى».(٣)

وذكر الآلوسي أن جعل (إلى) بمعنى اللام أو (في) التعليليتين يحصل المعنى الذي ذكره صاحب الكشف بوجه أقل تكلفًا.(٤)

وأرى أن القول بتناوب الحروف في القرآن الكريم لا يتناسب مع الإعجاز البياني للقرآن ودقة التعبير فيه، نعم قد يذكره بعض العلماء من باب تقريب المعاني، وهنا نجد أن للتعبير بحرف (إلى) دلالات وإيحاءات لا تكون مع حذفه أو مع حرف آخر، ولعل الأقرب ما ذكره صاحب الكشف، فحرف (إلى) يفيد الانتهاء والغاية، وبإضافته إلى هذه الآية دل على الغاية

(١) ينظر أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي، البحر المحيط، دار الفكر بيروت، ٢٠١٠، ج٢، ص٤٧١.

(٢) ينظر أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، إرشاد العقل السليم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٩، ج٢، ص٢٥. والبيضاوي، عبد الله بن عمر الشيرازي، أنوار التنزيل، دار الفكر، بروت، ج٢، ص٣٩.

(٣) الآلوسي، محمود بن الله الحسيني، روح المعاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج٣، ص٢٣٦.

(٤) المرجع نفسه، ج٣، ص٢٣٦.

المنشودة من النصرة المطلوبة، وهي إعلاء كلمة الله، وابتغاء وجه الله تعالى، فهذه النصرة تتطلب تضحيات كبيرة بالمال والنفس، والغالي والنفيس، فقوله (من أنصاري إلى الله) يلفت الانتباه إلى الغاية التي ستكون من أجلها كل هذه التضحيات، وعندما تتضح الغاية ويبين الهدف للإنسان تهون عليه جميع المصاعب والتضحيات.

المبحث الثاني

بلاغة التعبير بالكلمات

للكلمات القرآنية دلالات كبيرة، بحيث لا يمكن أن نستبدل كلمة مكان كلمة أخرى. فصيغة الكلمة لها دور في المعنى، وكذلك إيحاءاتها الصوتية وجرسها، هذا بالإضافة إلى ما قد تشير إليه من دلالات نفسية، أو واقع اجتماعي، وفيما يلي شواهد على ذلك:

أولاً كلمة (العيد) ودلالاتها:

لم ترد كلمة (عيد) إلا مرة واحدة بصيغة المفرد في قوله تعالى ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ ۖ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ المائدة: ١١٤، والعيد في اللغة كما جاء في لسان العرب: كل يوم فيه جمع، واشتقاقه من عاد يعود، وقيل اشتقاقه من العادة لأنهم اعتادوه.(١) وفي الحقيقة فإن كلا المعنيين موجود فيه، فهو يعود كل سنة مرة، وبذلك يعتاد الناس عليه. واستعمال القرآن لهذه الكلمة مرة واحدة بصيغة المفرد فيه دلالة على الواقع الاجتماعي للبشر، فالعيد لا يكون إلا مرة في السنة، وقوله (لأولنا وآخرنا) يشير إلى جانب التعود فهم يستمرون على هذه العادة جيلاً بعد جيل، قال د.عودة أبو عودة: ÷لكأن ذلك يدل دلالة كاشفة على دلالتها، فالعيد يأتي في العام مرة أو مرتين، ولعل ذلك يستشف أيضـًا من أنها وردت مفردة ولم ترد على صيغة الجمع".(٢)

وقال أيضـًا: ÷والآية التي ذكرت كلمة (العيد) تشعر أن العيد مناسبة سعيدة تستمر من عصر إلى عصر من الناس الأولين الذين صنعوها إلى الناس الآخرين الذين يتابعونها، وهذا هو معنى العيد تمامـًا كما نحياه الآن".(٣)

---

(١) ينظر ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط١، ج٣، ص٣١٥.

(٢) أبو عودة، عودة خليل، شواهد في الإعجاز القرآني، دار عمار، عمان، ط١، ١٩٩٨، ص٢١٣.

(٣) المرجع نفسه، ص٢١٤.

ثانياً كلمة (البطن) ودلالتها:

قال تعالى على لسان امرأة عمران ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ آل عمران:٣٥. فقد عبرت الآية بلفظ (البطن) في حين جاء التعبير في آية أخرى بلفظ (الجوف)، قال تعالى ﴿مَّا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ الأحزاب: ٤، ولم يرد التعبير بالجوف إلا في هذا الموضع، قال ابن الأثير مفرقًا بين اللفظين: ÷ومن الذي يؤتيه الله فطرة ناصعة يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، حتى ينظر إلى أسرار ما يستعمله من الألفاظ، فيضعها في موضعها، ومن عجيب ذلك أنك ترى لفظتين تدلان على معنى واحد، وكلاهما حسن في الاستعمال، وهما على وزن واحد وعدة واحدة، إلا أنه لا يحسن استعمال هذه في كل موضع تستعمل فيه هذه، بل يفرق بينهما في مواضع السبك، وهذا لا يدركه إلا من دق فهمه، وجل نظره، فمن ذلك قوله تعالى ﴿مَّا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ الأحزاب: ٤، وقوله تعالى ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ آل عمران:٣٥، فاستعمل الجوف في الأولى، والبطن في الثانية، ولم يستعمل الجوف موضع البطن، ولا البطن موضع الجوف، واللفظتان سواء في الدلالة، وهما ثلاثيتان في عدد واحد، ووزنهما واحد، فانظر إلى سبك الألفاظ كيف يفعل".(١)

أشار ابن الأثير هنا إلى مفهوم عظيم وهو أثر السياق اللغوي والسبك والنظم في تحديد دلالة الكلمة، ولكنه على الرغم من ذلك لم يقدم تفسيراً لهذا الاختلاف في التعبير.

ويرى الباحث أحمد ياسوف أن الأمر مرتبط بالدلالة الإيحائية في كل آية، حيث قال: ÷ذلك أن كل مادة منهما تختلف كل الاختلاف عن مادة اللفظة الأخرى، فمادة (الجوف) توحي بالضمور والخلو والانحسار والعمق، خصوصاً بما يرسمه حرف الجيم، وبعده حرف الواو الساكن، ثم حرف الفاء الذي تنضم عنده الشفاه من دلالة إيحائية. وذلك عكس (البطن) التي

(١) ابن الأثير، ضياء الدين نصر بن محمد، المثل السائر، مطبعة مصطفى البابي، القاهرة، ط١، ١٩٥٩، ج١، ص١٤٣.

توحي بالنتوء والبروز والانكشاف، وهي أنسب للحامل من مادة الجوف".[١]

ثالثا كلمة (البهتان) ودلالاتها:

أصل الكلمة من (بهت)، قال ابن فارس: «الباء والهاء والتاء، أصل واحد وهو كالدهش والحيرة، يقال: بُهت الرجل يبهت بَهتًا، والبَهْتة الحيرة، فأما البهتان فالكذب».[٢]

لذا فسر بعض المفسرين البهتان بمعنى يزيد عن معنى الكذب المجرد، قال ابن عطية: «البهتان مصدر من قولك بهته إذا قابله بأمر مبهت يحار معه الذهن، وهي رمي بباطل».[٣]وقال الآلوسي: «والبهتان الكذب الذي يتحير من شدته وعظمه».[٤]

فقد جاء اختيار لفظ البهتان في هذا الموضع ليبين الأثر النفسي لهذا الكذب، وأي شيء أشد على امرأة عفيفة طاهرة من أن تتهم في شرفها، حتى تمنت أنها ماتت قبل ذلك وكانت نسيًا منسيًا، والمتتبع للاستعمال القرآني يجد أن لفظ البهتان استعمل في المواضع التي يكون فيها للكذب أثر نفسي على المكذوب عليه، فقد وردت كلمة (البهتان) في الآيات التالية:

١ - قوله تعالى ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ۚ أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ النساء:٢٠، قال ابن عاشور: «وإنما جعل هذا الأخذ بهتانًا لأنهم كان من عادتهم إذا كرهوا المرأة وأرادوا طلاقها رموها بسوء المعاشرة واختلقوا ما

(١) ياسوف، أحمد، جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير، دار المكتبي، دمشق، ط١، ١٩٩٤، ٢٨٩-٢٩٠.

(٢) ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٩٧٩م، ج١، ص٣٠٧.

(٣) ابن عطية، أبو محمد عبد الحق الأندلسي، المحرر الوجيز، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١، ج٢، ص١٣٢.

(٤) الآلوسي، روح المعاني، ج٦، ص٢٦٣.

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

ليس فيها لكي تخشى سوء السمعة فتبذل للزوج مالاً ليطلقها».[١]

٢- قوله تعالى ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ النساء:١١٢. وأي شيء أشد على البريء من اتهامه بذنب غيره.

٣- قوله تعالى ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ النساء:١٥٦.

٤- قوله تعالى ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ النور: ١٦، في قصة الأفك التي اتهمت فيها السيدة عائشة رضي الله عنها، فنزلت براءتها بوحي يتلى إلى قيام الساعة تكريماً لها.

٥- قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ الأحزاب:٥٨.

٦- قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ الممتحنة: ١٢. وقد اختلف المفسرون في تفسير البهتان في هذه الآية، وذكر ابن عاشور أن الكلام هنا جامع لمعان كثيرة باختلاف محامله من حقيقة ومجاز وكناية، وتشمل: الكذب مواجهة في وجه المكذوب عليه، كما دل عليه التعبير بالأيدي والأرجل، وهو كذلك كناية عن ادعاء الحمل مع نسب ولد لقيط للزوج، وهو كناية عن تمكين المرأة نفسها من غير زوجها.[٢]

وكل ذلك مما له أثر نفسي بالغ في نفس المكذوب عليه.

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٤، ص٢٨٩-٢٩٠.

(٢) ينظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٨، ص١٦٦-١٦٧.

رابعاً كلمة (أجاءها) ودلالاتها:

قال تعالى ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ مريم: ٢٣.

لماذا أوثرت هذه الصيغة (أجاء) ولم يقل (فجاء بها المخاض)؟ هناك فرق واضح بين الصيغتين، فالتعبير بلفظ (فأجاءها المخاض) يدل على الاضطرار والإلجاء، وهذا المعنى لا يستفاد من الصيغة الأخرى.

وقد كان للتعبير بهذه الكلمة دلالة كبيرة في تصوير الحالة الجسدية والنفسية لمريم عليها السلام في ذلك الوقت، وإن القارئ لهذه الآية لتتراءى أمامه صورة مريم عليها السلام، وهي تجر نفسها جراً، وقد أعياها ثقل الحمل، وأنهكها الخوف والقلق، حتى تستقر عند جذع النخلة.

المبحث الثالث

بلاغة الجمل والتراكيب

عندما تنتظم الكلمات في جملة معينة فإنها تكتسب جزءاً كبيراً من دلالتها من خلال طريقة النظم، فالتقديم والتأخير، والحذف والذكر، والتكرار، والتعريف والتنكير، وغيرها، كل ذلك يؤثر في الدلالات المستفادة من العبارة، وفي هذا المبحث سأتناول مثالين من القرآن الكريم مما ورد في قصة مريم عليها السلام، لأبين أثر النظم في المعنى:

أولاً قوله تعالى ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾ آل عمران: ٣٦.

اختلف المفسرون في دلالة هذه الجملة، وفيما يلي بيان ذلك:

١- ذهب بعض المفسرين إلى أن التعريف في (الذكر) و(الأنثى) للعهد، والجملة تابعة للاعتراض قبلها (والله أعلم بما وضعت)،[١] فهو من كلام الله تعالى، فالمعنى ليس الذكر الذي طلبتْ كالأنثى التي أعطيتْها، وعلى ذلك يكون المعنى ترجيح هذه الأنثى التي هي موهوبة الله على ما قد رجت من أنه يكون ذكراً،[٢] وجعل الرازي هذه الجملة من كلامها على هذا الوجه، قال الرازي: ÷وهذا الكلام يدل على أن تلك المرأة كانت مستغرقة في معرفة جلال الله، عالمة بأن ما يفعله الرب بالعبد خير مما يريده العبد لنفسه".[٣]

٢- وذهب بعض المفسرين إلى أن التعريف في كلمتي (الذكر) و(الأنثى) للجنس، أي ليس الذكر الذي أردت أن يكون خادمًا ويصلح للنذر، كالأنثى التي لا تصلح لذلك، فيكون

(١) وهذا على قراءة الجمهور (وضَعَتْ)، أما على قراءة ابن عامر (وضعْتُ) فالجملة من كلامها.

(٢) ينظر الزمخشري، محمود بن عمر، تفسير الكشاف، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٥، ج١، ص٣٥٠. والشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧، ج١، ص٣٣٥.

(٣) الرازي، مفاتيح الغيب، ج٨، ص١٩٨ . وكذلك أبو حيان، البحر المحيط، ج٢، ص٤٣٩

كلامها من باب الاعتذار.[١] وفيه تفضيل للذكر على الأنثى، وأورد بعضهم على القول الثاني اعتراضًا نقله الآلوسي، حيث قال: ÷وأورد عليه أن قياس كون ذلك من قولها أن يكون وليست الأنثى كالذكر فإن مقصودها تنقيص الأنثى بالنسبة إلى الذكر والعادة في مثله أن ينفى عن الناقص شبهه بالكامل لا العكس".[٢] وقال ابن عطية: «وبدأت بذكر الأهم في نفسها، وإلا فسياق قصتها يقتضي أن تقول: وليست الأنثى كالذكر، فتضع حرف النفي مع الشيء الذي عندها وانتفت عنه صفات الكمال للغرض المراد».[٣]

هذا ما ذكره العلماء حول هذا التركيب، وقد تأملته طويلاً فظهر لي أن مجيء العبارة بهذا الترتيب ليس لتفضيل أحد الجنسين على الآخر بل ليتناسب مع معاني الآية على الوجهين اللذين نزلت بهما، فعلى قراءة الجمهور (والله أعلم بما وَضَعَتْ) الجملة من كلام الله تعالى، والتعريف يكون للعهد وفيه تفضيل الأنثى الموهوبة على الذكر المطلوب، لا تفضيل جنس الأنثى على جنس الذكر، وعلى قراءة ابن عامر (والله أعلم بما وضَعْتُ) فالجملة من كلام أم مريم، والتعريف للجنس، والمراد بيان الاختلاف بين الذكر والأنثى في طبيعة الخلق، والإمكانات والاستعدادات، ولو كان كلام امرأة عمران من باب كراهية الأنثى وانتقاصها، لكان في كلامها اعتراض على قدر الله وعدم رضا بما قسمه لها، وحاشاها، وهي امرأة مؤمنة من بيت قد اصطفاه الله عز وجل، قال تعالى ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ آل عمران: ٣٣. وقد ذم القرآن الكفار لكراهيتهم ولادة الإناث، قال تعالى ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) النحل: ٥٨-٥٩. صحيح أنها تحسرت وحزنت، ولكن ذلك كان بسبب

(١) ينظر أبو حيان، البحر المحيط، ج٢، ص٤٣٩. والشوكاني، فتح القدير، ج١، ص٣٣٥. الآلوسي، روح المعاني، ج٣، ص٢٤٣.

(٢) الآلوسي، روح المعاني، ج٣، ص٤٣١.

(٣) ابن عطية، المحرر الوجيز، ج١، ص٤٢٥.

خوفها من أن لا تتمكن من الوفاء بنذرها كما يجب، لأن التحرير للسدانة كان مختصاً بالذكور. ولعل تقديم (الذكر) في هذه العبارة قد جاء لدفع ما قد يتوهم من انتقاص الأنثى وتفضيل الذكر عليها، ولو قال (وليست الأنثى كالذكر) لفهم منه انتقاص الأنثى، فالإسلام لا يفرق بين الذكر والأنثى من حيث المسؤولية الفردية، والجزاء، وإنما يفرق بينهما من حيث الطبيعة، والاستعدادات فيشرع لكل واحد منهما ما يتناسب مع طبيعته، ويتلاءم مع قدراته التي وهبها الله تعالى له، قال تعالى ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ آل عمران: ١٩٥. وقال تعالى ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ النحل: ٩٧.

ثانيا قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ آل عمران:٤٢-٤٣.

كان لتركيب الجمل ونظمها في هاتين الآيتين أثر كبير على دلالاتها، وتنوعت آراء المفسرين في تفسيرها، مما أدى إلى إثراء المعاني المحتملة لها.

ومن ذلك اختلافهم في دلالة تكرار فعل الاصطفاء، حيث ذهب بعض المفسرين إلى أن التكرار في الآية للتأكيد، وذهب آخرون إلى التفريق بين نوعي الاصطفاء، واختلفوا في التفريق بينهما:

- فقيل: الاصطفاء الأول ذاتي، والاصطفاء الثاني بالتفضيل على غيرها.
- وقيل: الاصطفاء الأول الولاية وتقبلها من أمها، والاصطفاء الثاني لولادة عيسى عليه السلام.
- وقيل الاصطفاء الأول يدخل فيه معها صوالح النساء، والاصطفاء الثاني على نساء العالمين.[1]

والقول بالتفريق أولى من القول بالتأكيد، لأن حمل الكلام على التأسيس أولى من حمله

---

(١) ينظر الزمخشري، الكشاف، ٤ مجلدات، ج١، ص٣٥٥ أبو حيان، البحر المحيط، ج٣، ص١٤٦. الآلوسي، روح المعاني، ج٣، ص٢٠٨-٢٠٩.

على التأكيد، كما تنص القاعدة التفسيرية.[١] وتبقى الجملة محتملة لكل ما ذكر من وجوه التفريق بين الاصطفاءين، ولا مانع من حملها عليها جميعًا إذ لا تعارض بين هذه الأقوال، وذلك من بلاغة الإيجاز في القرآن الكريم بدلالة ألفاظه القليلة على المعاني الكثيرة.

كذلك التفت المفسرون إلى دلالة تقديم السجود على الركوع في هذه الآية،[٢] وتنوعت توجيهاتهم في ذلك:

- فقيل إن الواو لا تفيد الترتيب،[٣] وهذا صحيح لكن لا يمنع من النظر في سبب إيثار هذا الترتيب على غيره في الآية.
- وقيل يحتمل أنه كان الترتيب كذلك في صلاتهم،[٤] وهذا الأمر لا يمكننا الجزم به.
- وقيل إنها أمرت بالصلاة بذكر معلمين من معالم الصلاة وهما القنوت بطول القيام، والسجود، ثم أمرت بصلاة الجماعة وذكر لفظ الركوع لئلا تكرر الألفاظ، وليس المقصود السجود والركوع المنتظم في ركعة واحدة.[٥] وهذا الجواب محتمل، لكنه لا يجيب عن سبب تقديم لفظ السجود، ولم لم يكن التعبير (اقنتي واركعي واسجدي مع الساجدين).
- وقيل لأن المقام مقام شكر والسجود أنسب فيه.[٦]

(١) ينظر الحربي، حسين بن علي، قواعد الترجيح عند المفسرين، مجلدان، دار القاسم، الرياض، ط١، ١٩٩٦م، ج٢، ص٤٧٣.

(٢) وذلك خلافا لآية أخرى جاء فيها الركوع مقدما على السجود، وهي قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ الحج: ٧٧.

(٣) ينظر البيضاوي، أبو سعيد عبد الله بن عمر، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٩م، ج١، ص١٥٩. الآلوسي، روح المعاني، ج٣، ص٢١٢.

(٤) المراجع السابقة.

(٥) ينظر ابن عطية، المحرر الوجيز، ج١، ص٤٣٤.

(٦) ينظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٣، ص٢٤٤.

- وقيل لأن السجود أفضل.[١]

وهذان الجوابان فيما أظن أحسن ما قيل في ذلك، فتقديم السجود فيه مناسبة لمقام الشكر، وبيان لفضل السجود حيث يكون العبد أقرب ما يكون لله تعالى.

وفي قوله (مع الراكعين) دلالات أيضـًا، فقد رأى بعض المفسرين أن في هذا التعبير إشارة إلى صلاة الجماعة، وبيان لشرف مريم عليها السلام وفضلها على نساء بني إسرائيل بأن أمرت بصلاة الجماعة،[٢]وقيل المراد كوني في عداد المصلين ولا تكوني في عداد غيرهم.[٣]واللفظ وإن كان يحتمل الأمر بصلاة الجماعة إلا أنه يشير إلى معنى أبعد وهو مصاحبة الصالحين والسير على نهجهم، فهو أثبت للإيمان في القلب، وهو من نعيم الآخرة، قال تعالى ﴿وَمَن يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ النساء:٦٩.

(١) ينظر أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج١، ص ٣٦٧.

(٢) ينظر الزمخشري، الكشاف، ج١، ص٣٥٥. ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٣، ص٢٤٤.

(٣) ينظر الزمخشري، الكشاف، ج١، ص٣٥٥.

المبحث الرابع
بلاغة اختلاف التعبير في الآيات المتشابهة

في هذا المبحث دراسة لبعض الآيات المتشابهة في قصة عيسى ومريم عليهما السلام، في محاولة للكشف عن بعض أسرار التعبير القرآني، وإعجازه.

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

أولاً: قوله تعالى ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ آل عمران: ٤٨-٤٩.

وقوله تعالى ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ المائدة: ١١٠.

وفي الآيتين -على الرغم من تشابههما- أوجه من التغاير قد تكلم عدد من العلماء عن بعضها، وهي:

- الإشارة إلى الرسالة في آية آل عمران (وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ) وعدم ذكرها في آية المائدة، ولم أجد من تكلم عن ذلك. وكذلك لفظ (لكم) في آية آل عمران (أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم)، في حين لم يقل في المائدة (وإذ تخلق لهم).
- قوله في آية آل عمران (فأنفخ فيه)، وفي المائدة (فتنفخ فيها).
- تكرار لفظ (بإذني) في المائدة أربع مرات، في حين لم يذكر في آل عمران (بإذن الله) إلا مرتين.
- قوله في آل عمران (وأحيي الموتى) وفي المائدة (وإذ تخرج الموتى) وهذا الموضع لم أجد

من تكلم فيه من العلماء.

- الإشارة إلى معجزة الإخبار بما يأكلون وما يدخرون في البيوت في سورة آل عمران، وعدم ذكرها في المائدة، وهذا الموضع أيضـًا لم أجد أحداً من العلماء قد تكلم فيه.

وسأبدأ بعرض أقوال العلماء في المواضع التي تكلموا عنها، فأول ما تكلموا عنه الاختلاف بين قوله تعالى (فأنفخ فيه) و(فتنفخ فيها)، وللمفسرين أقوال عدة في مرجع الضمير في الموضعين:

- أولاً مرجع الضمير (فيه):

١- الضمير للكاف، أي ذلك الشيء المماثل لهيئة الطير.[١]

٢- الضمير للطير، أي الواحد منه، ذكره البغوي، والشوكاني.[٢]

٣- الضمير للطين.[٣]

٤- الضمير للهيئة المقدرة في نظم الكلام، وذكّر الضمير هنا مراعاة للمعنى، وأنّث الضمير في المائدة مراعاة للفظ. وهذا رأي الآلوسي.[٤] وإليه ذهب ابن عاشور حيث أعاد الضمير إلى الموصوف المحذوف الذي دلت عليه الكاف، أي هيئة كهيئة الطير.[٥]

---

(١) ينظر النسفي، مدارك التنزيل، ج١، ص٢٤٠. والزمخشري، الكشاف، ج١، ص٤٣١. والبيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار الفكر، ج٢، ص٣٩. والشوكاني، فتح القدير، ج١، ص٣٤١.

(٢) ينظر البغوي، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل، دار الكتب العلمية، بيروت، ج١، ص٣٩. الشوكاني، ج١، ص٣٤١- ٣٤٢.

(٣) ينظر ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل، ج١، ص١٤٦. والثعالبي، تفسير الثعالبي، ج١، ص٢٥٦. الرازي، مفاتيح الغيب، ج٨، ص٢٢٦.

(٤) ينظر الآلوسي، روح المعاني، ج٣، ص٦٦١. وذكر مكي بن أبي طالب أن عود الضمير على الهيئة جائز، لأنها بمعنى المثال والشبه، ولأن تأنيثها غير حقيقي. ينظر مكي، ابن أبي طالب القيسي، الهداية في بلوغ النهاية، منشورات كلية الدراسات العليا، جامعة الشارقة، ط١، ٢٠٠٨م، ص١٠١٨.

(٥) ينظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٣، ص٢٥١.

٥- وجوّز ابن عطية أن يكون المعنى: فانفخ في المذكور.(١)

٦- الضمير يعود على ما وقعت عليه الدلالة في اللفظ، وهو (أني أخلق)، ويكون الخلق بمنزلة المخلوق. ذكره ابن عادل، وابن عطية.(٢)

- مرجع الضمير (فيها):

١- الضمير للكاف، لأنها صفة الهيئة التي كان يخلقها عيسى وينفخ فيها، ولا يرجع إلى الهيئة المضاف إليها، لأنها ليست من خلقه.(٣)

٢- الضمير يعود على الهيئة المصورة.(٤)

٣- الضمير يعود على ما تقتضيه الآية ضرورة وهي تقتضي صوراً أو أجساماً أو أشكالاً.(٥)

٤- وقيل إن الضمير يعود على الطين.(٦)

والمفسرون على الرغم من اهتمامهم ببيان مرجع الضمير في كل آية إلا أنهم لم يبينوا سبب الاختلاف في التعبير وتخصيص كل آية بما خصت به، باستثناء ما قاله الآلوسي من مراعاة اللفظ في آية المائدة، ومراعاة المعنى في آية آل عمران، وهذا الكلام يبين جهة الاختلاف لا حكمته

(١) ينظر ابن عطية، ج١، ص٤٣٩. وينظر الثعالبي، عبد الرحمن بن محمد، تفسير الثعالبي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦، ج١، ص٢٥٦.

(٢) ينظر ابن عادل، أبو حفص عمر بن علي الحنبلي، اللباب في علوم الكتاب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨، ج٥، ص٢٤٣. وابن عطية، المحرر الوجيز، ج٢، ص٢٥٧.

(٣) ينظر ابن جزي، أبو القاسم محمد بن أحمد الكلبي، التسهيل في علوم التنزيل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٥م، ج١، ص٢٥٧. والنسفي، مدارك التنزيل، ج١، ص٤٤١. والرازي، مفاتيح الغيب، ج١٢، ص٤٥٨. والشوكاني، ج٢، ص٩٠.

(٤) ينظر أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٣، ص٩٣.

(٥) ينظر ابن عطية، المحرر الوجيز، ج٢، ص٢٥٧.

(٦) ينظر السمرقندي، نصر بن محمد، بحر العلوم، دار الفكر، بيروت، ج١، ص٤٣٠.

وبلاغته. أما العلماء الذين ألفوا في المتشابه اللفظي فقد ذكروا توجيهات لهذا التغاير، وفيما يلي بيان لذلك:

- يرى الخطيب الإسكافي أن التذكير في آية آل عمران لأنه إخبار من الله عز وجل بما قاله عيسى عليه السلام لبني إسرائيل، حيث عدد الآيات كلها، والقصد منه ذكر ما تقوم به حجته عليهم، وهذا أول ما يصور من الطين على هيئة الطير ويكون واحداً يلزم به الحجة فالتذكير أولى به. أما في آية المائدة فهي ذكر ما عدد الله من النعم على عيسى وما أصحبه إياه من المعجزات، والإشارة في هذه الآية ليست لأول ما يبديه لبني إسرائيل، وإنما إلى جميع ما أذن الله تعالى في كونه دلالة على صدقه، والتأنيث أولى بالجمع.(١) وهذا التوجيه تحتمله الآيات لكنه ليس الأولى -من وجهة نظري- فهناك معان أعمق من ذلك.
- ويرى الكرماني أن سبب تخصيص كل آية بما خصت به هو أن آية آل عمران إخبار قبل الفعل فأفرده، أما في المائدة فالخطاب من الله تعالى يوم القيامة، وقد تقدم من عيسى عليه السلام الفعل مرات، والطير يصلح للواحد وللجميع.(٢) ويلاحظ أن توجيه الكرماني قريب من توجيه الإسكافي.
- أما ابن الزبير الغرناطي فيرى أن اختلاف التعبير يرجع إلى أن عود الضمير على اللفظ وما يرجع إليه أولى من عودته على المعنى، مع كون كلا التعبيرين فصيح، فأعاد الضمير في آل عمران على الكاف لأنها تعاقب (مثل) وهو مذكر، وفي ذلك مراعاة للفظ، ثم أعاد الضمير في المائدة إلى الكاف من حيث هي في المعنى صفة، لأن المثل صفة في التقدير المعنوي، فحصل مراعاة اللفظ أولاً، ومراعاة المعنى ثانياً على ما يجب، حيث أن الترتيب الذي استقر

(١) ينظر الخطيب الإسكافي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله، درة التنزيل وغرة التأويل، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٩٧٣م، ص٦٥-٦٦.

(٢) ينظر الكرماني، محمود بن حمزة، أسرار التكرار، دار الفضيلة، ص٨٩- ٩٠.

عليه المصحف أصل مراعى.[١] وهذا التوجيه من وجهة نظري لا يجعل لسياق الآيات وأغراضها في كل سورة أي اعتبار في تخيّر الصيغ والتراكيب، ويجعل منها مجرد تراكيب فصيحة بعضها أولى من بعض، وقُدّم الأولى منها حسب ترتيب المصحف دون أن يكون لذلك أثر في المعنى، وهذا أمر لا أتفق معه فيه.

- وذكر الغرناطي وجهًا آخر، حيث ورد في سورة آل عمران من قوله تعالى ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ آل عمران: ٤٤، إلى قوله تعالى (فَأَنفُخُ فِيهِ) نحو من عشرين ضميراً من ضمائر المذكر، فجاء التذكير في الضمير متناسبًا مع ما قبله. أما آية المائدة فمفتتحة بقوله تعالى (اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ) المائدة: ١١٠، وخلقه الطائر ونفخه فيه من أجلّ نعم الله تعالى عليه لتأييده بذلك فناسب ذلك تأنيث الضمير، ولم تكثر الضمائر في هذه السورة ككثرتها في آل عمران.[٢] وهذا التوجيه يركز على الجانب اللفظي دون المعنوي.

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

وتكلم بعض العلماء أيضًا عن سبب تكرار عبارة (بإذن الله) في آل عمران مرتين فقط، في حين تكرر لفظ (بإذني) في المائدة أربع مرات، قال أبو السعود معللاً ذلك: «لما أن ذلك موضع الإخبار،[٣] وهذا موضع تعداد النعم».[٤] وذكر ابن عادل مثل هذا التوجيه حيث قال: «لأن هناك إخبار، وهنا مقام تذكير بالنعمة والامتنان فناسب الإسهاب».[٥]

أما الكرماني فيعلل ذلك قائلاً: «لأن ما في هذه السورة]أي آل عمران[من كلام عيسى، فما يتصور أن يكون من فعل البشر أضافه إلى نفسه، وهو الخلق الذي معناه التقدير، والنفخ الذي

(١) ينظر الغرناطي، أحمد بن إبراهيم، ملاك التأويل، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ٢٠٠٧م، ج١، ص٣٠١، ٣٠٢.

(٢) ينظر المرجع نفسه، ج١، ص٣٠٣.

(٣) يقصد آية آل عمران.

(٤) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٣، ص٩٣.

(٥) ابن عادل، اللباب، ج٧، ص٦٠١.

هو إخراج الريح من الفم، وما يتصور إضافته إلى الله تعالى أضافه إليه (فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ) آل عمران: ٤٩، بما يكون في طوق البشر؛ لأن الأكمه عند بعض المفسرين الأعمش، وعند بعضهم الأعشى، وعند بعضهم الذي يولد أعمى، وإحياء الموتى من فعل الله فأضافه إليه، وما في المائدة من كلام الله سبحانه وتعالى، فأضاف جميع ذلك إلى صنعه إظهاراً لعجز البشر، ولأن فعل العبد مخلوق لله تعالى. وقيل (بإذن الله) يعود على الأفعال الثلاثة، وكذلك الثاني يعود إلى الثلاثة الأخرى».(١)

أما الخطيب الإسكافي فلم يعجبه قول من قال بالتفريق بين أفعال عيسى عليه السلام وأفعال الله عز وجل، فقال: «وهذا سهو منه؛ لأن الذي ذكر أنه لم يذكر معه (إذن الله) لأنه من فعل عيسى عليه السلام فقد نطقت سورة المائدة بخلافه...فسوى بين الفعلين اللذين ذكر من حكيت كلامه أنهما مختلفان...وقد رأيت ما اعتد الله سبحانه وتعالى به عليه في سورة المائدة ينطق أن ما ذكر أنه بغير إذنه هو بإذنه».(٢) وما ذكره الخطيب الإسكافي هو الصواب من وجهة نظري، ولا يصح ما ذكره الكرماني من توجيه، وكذلك ما قاله بأن أفعال العبد مخلوقة لله لذلك قال (بإذني)، فهذا ما لا وجه له في سياق الآيات. ولكن الإسكافي لم يقدم توجيهاً بديلاً للتوجيه الذي انتقده ورده.

وقد كان لابن الزبير الغرناطي رأي آخر حيث قال: «ووجهه أن آية آل عمران إخبار وبشارة لمريم بما منح ابنها عيسى عليه السلام، وبمقاله عليه السلام لبني إسرائيل تعريفاً برسالته وتحدياً بمعجزاته...أما آية المائدة فقصد بها غير هذا، وبنيت على توبيخ النصارى وتعنيفهم في مقالهم في عيسى عليه السلام، فوردت متضمنة عده سبحانه إنعامه على نبيه عيسى عليه السلام، على طريقة تجاري العتب، وليس بعتب، تقريراً يقطع به من وقع في العظيمة ممن عبده...ويزيد هذا الغرض بياناً ما أعقبت به هذه الآية من قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ

(١) الكرماني، أسرار التكرار، ص٩٠-٩١.

(٢) الخطيب الإسكافي، درة التنزيل، ص٦٦-٦٧.

لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ﴾ المائدة: ١١٦، فهل هذا للنصارى إلا أعظم توبيخ وتقريع...فآية آل عمران بشارة وإخبار لمريم، وآية المائدة واردة فيما يقول سبحانه لعيسى عليه السلام توبيخًا للنصارى كما بيّنا، فلما اختلف القصدان اختلفت العبارتان».[1] وما ذكره الغرناطي يمثل –من وجهة نظري– مفتاح حل هذه المسألة، ولكنه لم يوظفه في توجيه الآيات في الموضعين، وإنما اكتفى بتوجيه هذا الجزء فقط من الآيات.

هذا مجمل ما وجدته من أقوال وتوجيهات لتغاير التعبير في هذين الموضعين، ويلاحظ أن هذه المحاولات قد أغفلت بعض المواضع، كما أنها اعتمدت على النظرة التجزيئية للآيات دون النظرة الشمولية للسياق في كل سورة، وقد راعى أغلبها التوجيه اللفظي دون التوجيه المعنوي والنظر في الدلالات المعنوية والسياق العام.

ولمعرفة بلاغة التعبير في هذه الآيات ودلالاتها لا بد من النظر في سياق الآيات في السورتين، وقد أشار الغرناطي إلى شيء من ذلك كما سبق، فالسياق في آيات سورة آل عمران هو بشارة لمريم وإخبار بما سيقوله عيسى عليه السلام لبني إسرائيل لتعريفهم برسالته عليه السلام وإقامة الحجة على ذلك بالمعجزات. أما السياق في آيات سورة المائدة فهو خطاب من الله عز وجل لعيسى عليه السلام بقصد توبيخ النصارى على عبادتهم لعيسى عليه السلام، والسياق يدل على أن هذا الخطاب سيكون يوم القيامة فقد جاء في الآية السابقة لها قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ المائدة: ١٠٩، فالغرض إذن بيان خطأ النصارى في تأليههم لعيسى عليه السلام، وقد استندوا في ذلك على ما جاء به من معجزات، فجاءت الآيات لتبين أن كل هذه المعجزات لم تكن إلا بإذن الله، وأن الفاعل الحقيقي لها هو الله عز وجل.

ولذلك نجد أن الآيات في آل عمران تشير إلى موضوع الرسالة في قوله تعالى (وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ) آل عمران:٤٨، وجاء لفظ (لكم) في قوله (أَنِّي

(١) الغرناطي، ملاك التأويل، ج١، ص٣٠٣-٣٠٤.

أَخْلُقُ لَكُم) للدلالة على أن هذه المعجزات موجهة لهم ليؤمنوا بعيسى عليه السلام ويقروا بنبوته.

وجاءت سائر الجمل والألفاظ متناسبة مع هذا الغرض بأسلوب فيه إظهار وإبراز للمعجزات، لذلك قال في آل عمران (فأنفخ فيه) أي في الشيء المخلوق الذي على هيئة الطير، أما في سورة المائدة فقال (فتنفخ فيها) أي في الهيئة المصورة، فعيسى عليه السلام لم يكن له إلا تصوير الهيئة الجامدة أما حقيقة الإحياء فمن الله عز وجل.

وجاء في آل عمران (وأحيي الموتى) في حين جاء في سورة المائدة (وإذ تخرج الموتى) فالتعبير بلفظ الإحياء أظهر للمعجزة، والتعبير بلفظ الإخراج أنسب في إقامة الحجة على بطلان عبادة النصارى لعيسى عليه السلام، فإن عيسى عليه السلام أخرج الموتى إخراجًا ظاهريًا، أما حقيقة الإحياء فمن الله عز وجل.

وكذلك تكرار لفظ (بإذني) في المائدة أربع مرات جاء بغرض الرد على من زعم ألوهية عيسى عليه السلام. ولأن السياق في سورة آل عمران لإظهار المعجزات ذكر معجزة الإخبار بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، في حين سكت عنها في سورة المائدة إما اكتفاءً بذكر أبرز المعجزات التي جاء بها، أو لأنها لم تكن الدليل الأبرز الذي استند عليه النصارى في تأليه عيسى عليه السلام.

هذا ما ظهر لي من خلال تأملي في الآيات في هذين الموضعين والله تعالى أعلم.

ثانياً: قوله تعالى ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ آل عمران: ٤٧.

وقوله تعالى ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ مريم: ٢٠.

فلم جاء التعبير في سورة آل عمران بالولد، وفي سورة مريم بالغلام؟ ولم أجد فيما اطلعت عليه من تفاسير من تكلم في هذه المسألة، ولم يتطرق إليها كل من الخطيب الإسكافي، وابن الزبير الغرناطي، أما الكرماني فقد قال: «لأن في هذه السورة]آل عمران[تقدم ذكر المسيح، وهو ولدها، وفي مريم ذكر الغلام حيث قال (لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا)».[١] فالكرماني يرجع المسألة إلى الموافقة اللفظية.

ويرى د.فاضل السامرائي أن كل تعبير ناسب مكانه، فالولد أعم من الغلام؛ لأن الولد يقال للذكر والأنثى، والمفرد والجمع، فلما بشرها الله عز وجل بالكلمة -كما جاء في سورة آل عمران- وهي عامة، سألت بما هو أعم من الغلام، أما في سورة مريم فبشرها جبريل عليه السلام بالغلام، فقالت (أنى يكون لي غلام).[٢] إذن فالدكتور السامرائي يرجع الأمر إلى الموافقة اللفظية لما ورد في كل سورة.

ولكني أرى أن وراء هذا التعبير معنى أعمق وأدق من ذلك، وقد تأملت الآيات وظهر لي فيها عدة وجوه:

إن الجو في سورة آل عمران جو البشارة، قال تعالى ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ آل عمران: ٤٥، في حين أن الجو في سورة مريم يغلب عليه مشاعر الخوف والفزع فنجد الألفاظ والعبارات الدالة على هذا الجو من بداية المقطع الذي تحدّث عن قصتها، فها هي مريم قد (انتبذت) من أهلها مكانًا شرقيًا، ثم جاءها جبريل ففزعت منه فقالت ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ

---

(١) الكرماني، أسرار التكرار، ص٨٩.

(٢) ينظر السامرائي، فاضل صالح، الأسئلة البيانية في القرآن الكريم، مكتبة الصحابة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨م، ص٣١-٣٢.

تَقِيًّا﴾ مريم: ١٨، ولم يزد جبريل في بشارته لها عن قوله ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ مريم: ١٩،[١] ثم انتبذت بعد ذلك مرة أخرى بعد حملها بعيسى مكانًا قصيًا، ثم تصور الآيات حالاتها ومعاناتها وقت المخاض، وجاء التعبير بلفظ ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ مريم: ٢٣، الذي يوحي بالمشقة والاضطرار بخلاف لفظ (فجاء بها)، وها هي مريم الصديقة تتمنى الموت على ما تمر به من آلام وخوف من موقف قومها والعار الذي سيلحقونه بها.

وبناء على اختلاف جو كل سورة اختير من الألفاظ ما يناسبه. فالولد في اللغة اسم يطلق على الواحد والجمع، والذكر والأنثى، والصغير والكبير، أما الغلام فهو طار الشارب.[٢] فلعل التعبير بلفظ (الغلام) في سورة مريم جاء ليصور خوف مريم عليها السلام من الفضيحة والعار، وأن لا يصدقها قومها فيما تقول، وخوفها كذلك من أن تلاحقها هذه الفضيحة مدة زمنية طويلة حتى يصبح الولد غلامًا، وللسبب نفسه نجد الآيات في سورة مريم تذكر قول مريم (وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا) مريم: ٢٠، ولم ترد هذه الجملة في سورة آل عمران. كذلك نجد سورة مريم تذكر موقف قومها منها واتهامهم لها بالزنا في قوله تعالى ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ مريم: ٢٧ – ٢٨، ولم يرد شيء من ذلك في سورة آل عمران.

وهناك وجه آخر وهو أن سورة آل عمران لم تذكر أحداث المخاض والولادة، فجاء ذكر الولد ليشير إلى ما ستعانيه مريم من مشقة المخاض والولادة ولكن على سبيل الإجمال، ليأتي تفصيل هذا الإجمال في سورة مريم بعد ذلك. والله تعالى أعلم.

(١) وذلك بخلاف ما جاء في سورة آل عمران حيث جاءت البشارة مفصلة عن طريق الملائكة لا جبريل وحده.

(٢) ينظر ابن منظور، لسان العرب، ج٣، ص٤٦٧، ج١٢، ص٤٣٩. والفيروزأبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٣م، ج١، ص١٤٧٥. والراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ص١٠٦٨، ١٦١٥.

ثالثاً: قوله تعالى ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ الأنبياء: ٩١.

وقوله تعالى ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ التحريم: ١٢.

جاء في سورة الأنبياء لفظ (فيها)، والضمير يعود على مريم، والمعنى أحييناه في جوفها، وقيل: فعلنا النفخ فيها.(١) أما في سورة التحريم فقد جاء لفظ (فيه) وللمفسرين قولان في مرجع هذا الضمير:

١- الضمير يعود على عيسى عليه السلام، وهذا ما ذكره الرازي.(٢)

٢- الضمير يعود على الفرج، وهذا ما ذكره البيضاوي.(٣)

والأرجح من وجهة نظري القول الثاني، لأن عيسى لم يجر له ذكر في الآية.

وقد اختلف المفسرون في معنى (الفرج) على قولين:

١- المراد فرج نفسها، أي حفظته من الفاحشة، ورجح هذا المعنى كل من الطبري، والزمخشري، والآلوسي.(٤)

٢- المراد جيب درعها، وقد عد الزمخشري هذا من بدع التفاسير،(٥) في حين رجحه ابن الجوزي قائلاً: «وهذا أبلغ في الثناء عليها، لأنها إذا منعت جيب درعها فهي لنفسها أمن».(٦)

---

(١) ينظر البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار الفكر، ج٤، ص١٠٦.

(٢) ينظر الرازي، مفاتيح الغيب، ج٣٠، ص٥٧٩.

(٣) ينظر البيضاوي، أنوار التنزيل، دار الفكر، ج٥، ص٣٥٨.

(٤) ينظر الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٠م، ج١٧، ص٦٧. والزمخشري، الكشاف، ج٤، ص١٣٢. والآلوسي، روح المعاني، ج١٧، ص٦٩.

(٥) ينظر الزمخشري، الكشاف، ج٤، ص١٣٢.

(٦) ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، زاد المسير، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٧م، ج٥، ص٢٦٧.

والراجح من وجهة نظري القول الثاني، لما فيه من مبالغة في الثناء عليها، ولما فيه من لطف الإشارة، قال الزركشي «أخطأ من توهم هنا الفرج الحقيقي، إنما هو من لطيف الكنايات وأحسنها، وهي كناية عن فرج القميص، أي لم يعلق ثوبها ريبة، فهي طاهرة الأثواب، وفروج القميص أربعة: الكمان، والأعلى، والأسفل، وليس المراد هذا، فإن القرآن أنزه معنى، وألطف إشارة».(١)

أما سبب تخصيص كل آية بما خصت به من ضمير، فقد علل الخطيب الإسكافي ذلك بأن الآية في سورة الأنبياء كان القصد منها التعجب من حالة مريم وأنها بالنفخ صارت حاملاً، أما آية سورة التحريم فلم يكن القصد منه التعجب فجاء اللفظ على أصله.(٢)

أما الكرماني فيرى أن المقصود في سورة الأنبياء ذكرها وما آل إليه أمرها حتى ظهر فيها ابنها، وصارت هي وابنها آية، وذلك لا يكون إلا بالنفخ في حملها، والاستمرار على ذلك إلى ولادتها، فلهذا اختصت بتأنيث الضمير، أما في سورة التحريم فالمقصود ذكر إحصانها وتصديقها بكلمات ربها، وكأن النفخ أصاب فرجها –والمراد فرج الجيب أو غيره– فخصت بالتذكير.(٣)

ويرى ابن الزبير الغرناطي أن الاختلاف بالتذكير والتأنيث في الآيتين يرجع إلى اختلاف الحامل على ذكرها في كل آية، ففي سورة الأنبياء قصد تشريفها، وتشريف ابنها فأعيد الضمير إلى الذات الطاهرة بجملتها، وفي آية التحريم لم يقصد التوسع في المدح كما في آية الأنبياء، وإنما قصد تخصيصها في ذاتها بعظيم إيمانها، وتشبيه حالها بالمذكورة قبلها وهي زوجة فرعون، واجتماعهما في ضرب المثل بهما للمؤمنين، ولذلك لم يدع داعٍ إلى ذكر ابنها في هذه الآية

---

(١) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ص٥٠٣– ٥٠٤. وقد ذكر هذا المعنى الباحث أحمد ياسوف، في كتابه جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير، ص٢٥٥– ٢٦٨، عند حديثه عن الدلائل التهذيبية في مفردات القرآن.

(٢) ينظر الخطيب الإسكافي، درة التنزيل، ص٣٠٣.

(٣) ينظر الكرماني، أسرار التكرار، ص١٧٩– ١٨٠.

بخلاف آية الأنبياء.(١)

هذا ما ذكره العلماء في توجيه هاتين الآيتين، وللوقوف على وجه هذا الاختلاف في التعبير لا بد من النظر في سياق الآيتين في سورتيهما. فسورة الأنبياء تذكر قصص الأنبياء في سياق امتنان الله عز وجل بتأييدهم ونصرهم على أعدائهم، وتكريمهم وبيان رفعة منزلتهم عند الله، فناسب ذلك إعادة الضمير إلى ذات مريم الطاهرة، فالتشريف والتكريم والتأييد الإلهي لعيسى بدأ منذ حملها به، بل قبل ذلك فقد قال الله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ آل عمران: ٤٢. أما في سورة التحريم فقد كان القصد ضرب المثل بإيمان مريم وعفتها للمؤمنين، فناسب ذلك إعادة الضمير إلى الفرج –الذي هو جيب القميص– للإشارة إلى إحصانها الذي استحقت به تخليد اسمها وضرب المثل بها.

رابعاً: قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ الأنبياء: ٩١.

وقوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ المؤمنون: ٥٠.

تقدم ذكر مريم في سورة الأنبياء على عيسى عليه السلام، في حين تقدم ذكر عيسى على مريم عليهما السلام في سورة المؤمنون. ولم أجد فيما اطلعت عليه من كتب من تكلم في هذه المسألة.

ولمعرفة سبب اختلاف الآيتين في التقديم والتأخير لا بد من النظر في سياق الآيتين في السورتين. كلا السورتين تتحدثان عن دعوة الأنبياء لأقوامهم، لكن سياق سورة الأنبياء الامتنان بنصر الله للرسل وإحاطتهم برعايته سبحانه، وفيها تأنيس وتثبيت للنبي ﷺ بأن الله عز وجل سينصره على أعدائه كما نصر الأنبياء من قبله، قال تعالى ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ الأنبياء:٩. وقال تعالى ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ الأنبياء: ٤١. ثم يمضي السياق بذكر الأنبياء وما امتن الله به عليهم وتأييده عز وجل لهم بنصرهم على أعدائهم وإنجائهم من كيدهم، وكان آخر من ذكر

(١) ينظر ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل، ج٢، ص٨٤٥– ٨٤٧.

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

مريم وابنها عليهما السلام، فناسب سياق الآيات تقديم ذكر مريم، لأن الله قد أحاط عيسى برعايته وحفظه منذ أن حملت به، وفي أثناء المخاض والولادة، حتى أتت به قومها تحمله، فرد كيدهم عنها وعنه بأن أنطقه الله تعالى في المهد، وحفظه من كيدهم بعد ذلك بأن رفعه إليه.

أما في سورة المؤمنون فسياق الآيات في ذكر تكذيب الأقوام لأنبيائهم، وما نال هؤلاء الأقوام من عذاب جراء تكذيبهم، فالسورة تبين وحدة دعوة الأنبياء، لذلك تكررت العبارة نفسها على لسان رسولين في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ المؤمنون: ٢٣. وقال تعالى ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ المؤمنون: ٣٢. وتبين السورة كذلك وحدة موقف الأقوام المكذبين قال تعالى ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَىٰ ۖ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ المؤمنون: ٤٤، فناسب هذا السياق تقديم ذكر عيسى عليه السلام لأنه هو مبلغ رسالة الله عز وجل ودعوته، والله تعالى أعلم.

الخاتمة

بعد هذه الجولة في قصة عيسى ومريم عليهما السلام، ودراسة الدلالات اللغوية لمجموعة من الحروف والكلمات والجمل، أخلص إلى النتائج التالية:

- الإعجاز القرآني إعجاز لغوي بالدرجة الأولى، وقد تبين من خلال هذا البحث أن القصص والأخبار الواردة في القرآن ما هي إلا أثر من آثار الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم.
- يبرز الإعجاز القرآني في القصة من خلال جمال الأداء، ودقة التعبير عن الأحداث، والشخصيات، وبما يصوره من انفعالات نفسية، وبما يشير إليه من حقائق واقعية واجتماعية.
- يبدأ الإعجاز القرآني بالحرف، سواء كان من حروف المباني أو من حروف المعاني.
- الكلمات القرآنية المفردة يمكن أن تفهم دلالاتها من خلال علم الأصوات وعلم الصرف، وعلم المعجم، وللسياق القرآني دور في تحديد معنى الكلمة، كما أن هذه الكلمات قد تشير إلى دلالات نفسية عميقة، وواقع اجتماعي يعيشه الناس.
- تركيب الجملة ونظمها من حيث التقديم والتأخير، والحذف والذكر، والتعريف والتنكير، وصيغ الأفعال، والصيغ الصرفية، وغيرها يؤثر على دلالاتها، فلا بد من مراعاة ذلك عند تفسير الآيات.
- دراسة الدلالات اللغوية للآيات المتشابهة تكشف عن جانب مهم من جوانب الإعجاز القرآني.

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

المراجع

١- ابن الأثير، ضياء الدين نصر بن محمد، المثل السائر، مطبعة مصطفى البابي، القاهرة، ط١، ١٩٥٩م.

٢- الآلوسي، محمود بن عبد الله الحسيني، روح المعاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣- البغوي، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل، دار الكتب العلمية، بيروت.

٤- البيضاوي، عبد الله بن عمر الشيرازي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار الفكر، بيروت. وطبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.

٥- الثعالبي، عبد الرحمن بن محمد، تفسير الثعالبي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦م.

٦- ابن جزي، أبو القاسم محمد بن أحمد الكلبي، التسهيل لعلوم التنزيل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.

٧- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، زاد المسير، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٧م.

٨- الحربي، حسين بن علي، قواعد الترجيح عند المفسرين، مجلدان، دار القاسم، الرياض، ط١، ١٩٩٦م.

٩- أبو حسان، جمال محمود، دراسات إسلامية وعربية، دار الرازي، عمان، ط١، ٢٠٠٣م.

١٠- أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي، البحر المحيط، ١١ مجلد، دار الفكر، بيروت، ٢٠١٠م.

١١- الخضري، محمد الأمين، من أسرار الحروف في الذكر الحكيم، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٩٨٩م.

١٢- الخطيب الإسكافي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله، درة التنزيل وغرة التأويل، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٩٧٣م.

١٣- دراز، محمد عبد الله، النبأ العظيم، دار طيبة الرياض، ط٢، ٢٠٠٠.

١٤- الرازي، محمد بن عمر، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٥- الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، دار القلم، دمشق.

١٦- الزركشي، محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٦، ١٩٨٨م.

١٧- الزمخشري، محمود بن عمر، تفسير الكشاف، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٥.

١٨- السامرائي، فاضل صالح، الأسئلة البيانية في القرآن الكريم، مكتبة الصحابة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨م.

١٩- أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ٦ مجلدات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.

٢٠- السمرقندي، نصر بن محمد، بحر العلوم، دار الفكر، بيروت.

٢١- الشنقيطي، محمد الأمين، أضواء البيان، دار عالم الكتب، بيروت.

٢٢- الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.

٢٣- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٠م.

٢٤- ابن عادل، أبو حفص عمر بن علي الحنبلي، اللباب في علوم الكتاب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.

٢٥- ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، دار سحنون، تونس، ١٩٩٧م.

٢٦- ابن عطية، أبو محمد عبد الحق الأندلسي، المحرر الوجيز، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م.

٢٧- أبو عودة، عودة خليل، البيان القرآني مفهومه ووسائله، بحث ألقي في الندوة الأدبية السنوية لمكتب شبه القارة الهندية- رابطة الأدب الإسلامي العالمية، كيرلا، الهند، ٢٠٠٨م.

٢٨- أبو عودة، عودة خليل، شواهد في الإعجاز القرآني، دار عمار، عمان، ط١، ١٩٩٨م.

٢٩- الغرناطي، أحمد بن إبراهيم، ملاك التأويل، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ٢٠٠٧م.

٣٠- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٩٧٩م.

٣١- الفيروزأبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٣م.

٣٢- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، تأويل مشكل القرآن، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٦م.

٣٣- القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٤- ابن كثير، إسماعيل بن عمر الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣٥- الكرماني، محمود بن حمزة، أسرار التكرار في القرآن الكريم، دار الفضيلة.

٣٦- مكي، ابن أبي طالب القيسي، الهداية في بلوغ النهاية، منشورات كلية الدراسات العليا، جامعة الشارقة، ط١، ٢٠٠٨م.

٣٧- ابن منظور، محمد بن مكرم الأفريقي، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط١ .

٣٨- النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد، مدارك التنزيل، دار النفائس، ١٩٩٦م.

٣٩- ياسوف، أحمد، جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير، دار المكتبي، دمشق، ط١، ١٩٩٤م.